

# شارع المتنبى

## ظاهرة ثقافية فريدة

تحقيق - وليد عبد الأمير علوان . تصوير - فاضل عباس السلامي



Zoco de Al-Saray

سوق السراي

يبدو أن المقولة الشهيرة التي يرددها المثقفون العرب منذ خمسينات القرن الماضي، والتي تقول "الازالت القاهرة تكتب، وبيروت تطبع، وبغداد تقرأ" تجد صداها لحد الآن. حيث إن عاصمة العباسيين، والتي احتفل أهلها قبل أيام بالذكرى 1280 لتأسيسها، والتي يبلغ تعداد نفوس سكانها اليوم 5.5 مليون نسمة ويدخلها يومياً حوالي مليون شخص من المحافظات القريبة لها، هي والثقافة صنوان لا يفترقان، ولا يمكن لأحد من أبنائها، أو من زائريها من أهل العلم والثقافة، عندما يصل إلى أحد مراكز بغداد المهمة، ومعالمها البارزة، كشارع الرشيد، إلا وأن تقوده قدماءه، إلى شارع الثقافة، والريثة التي يتنفس منها أرباب الثقافة والفن، وأعني بذلك شارع المتنبى.

### الموقع والتسمية

يقع هذا الشارع في الجانب الشرقي من نهر دجلة، وسط العاصمة بغداد، والمسمى بـ"جانب الرصافة"، حيث يتفرع من أقدم، وأشهر شوارع بغداد، شارع الرشيد، وينتهي بـ"سوق السراي" من جهة اليسار، و"جديد حسن باشا" من جهة اليمين، ويبلغ طوله حوالي 250 متراً، وتتفرع من جانبه عدة أفرع وأزقة، تشغلها مطابع ومحلات تجليد الكتب، وقد تمت تسميته بهذا الاسم من قبل أمانة العاصمة في ثلاثينيات القرن الماضي تيمناً بالشاعر الكوفي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس قديماً وحديثاً؛ أبو الطيب المتنبى.



Libros expuestos sobre la acera

كتب معروضة على أرضية الشارع



Los libros expuestos sobre la acera atraen a los lectores

الكتب المعروضة على أرضية الشارع تجذب القراء

والتغيير الجذري الذي لحق به، وامتد تأثيره حتى وقتنا الحاضر. كانت خلال الفترة التي أعقبت حرب الخليج الثانية، حيث أنه بسبب تدهور الأحوال المعيشية، وشظف العيش الذي لحق بالشعب عموماً، وبمتمثليه خصوصاً، لمحدودية مواردهم المالية، فقد دفعتهم الحاجة إلى بيع مآلديهم من كتب، وذلك لتأمين لقمة العيش والدواء. وتحول هذا الشارع إلى سوق بيع ومزادات علنية، لمئات من أمهات الكتب والمصادر في مختلف العلوم واللغات، وأصبح منظر أساتذة الجامعة، ومربي الأجيال، وهم يعرضون كتبهم على الأرض، أو من خلال بعض طلبتهم أو معارفهم هو منظر اعتيادي، لذلك نشأت طبقة جديدة من الباعة يسمون بـ"باعة البسطات" وهم الباعة الذين يعرضون الكتب والمجلات وأنواع المطبوعات الأخرى على الأرض والتي عادة ما تكون أسعارها متهاودة جداً، حيث إن سعر الكتاب يصل إلى نصف سعره المعروض ولنفس الطبعة والجودة، في واجهة إحدى المكتبات الموجودة في نفس الشارع. وقد شجع ذلك جمهور القراء على اقتناء، حتى مما قد لا يحتاجونه من كتب، في سبيل تزيين مكتباتهم الخاصة، ودفع بالكثيرين من الباعة خارج السوق إلى عرض مآلديهم من مطبوعات داخله.

### شارع المتنبى أيام الجُمع

إن يوم الجمعة هو بحق عيد الثقافة الأسبوعي العراقي غير المعلن، حيث يفد رواد الثقافة في بغداد والمحافظات القريبة منها أفواجاً وزيارات، صباح هذا اليوم المبارك، إلى هذا الشارع، لاقتناء ما يحتاجونه من كتب أو على الأقل، للاطلاع على المعروض، وتجد الجديد كل أسبوع لأن بعض الباعة لا يعرضون الجديد لديهم إلا يوم الجمعة، كما أنه المكان المناسب للقاء بعضهم البعض، حيث أصبح هذا اليوم، وفي هذا الشارع، هو اليوم التقليدي، وعلى غير موعد، الذي يلتقي فيه الأساتذة والكتاب والأدباء، أما بالنسبة للباعة وتحديداً "أصحاب البسطات" فإنهم يفدون منذ الصباح الباكر، حاملين معهم ما تم جمعه خلال أسبوع، من كتب ومجلات، إضافة إلى ما يحتفظون به من زرين محفوظ داخل إحدى غرف السوق، التي يقومون باستئجارها كمخزن، حيث يقومون بعرضها بطريقة منظمة، وكل كتاب يحمل سعراً معيناً، أو تجميعها على شكل أكداش ويسعر مقطوع، وعلى المشتري أن يبحث عن الكتاب الذي ينوي شرائه.

وكلما اقترب الوقت من الظهيرة، كلما انخفضت أسعار هذه الكتب، لأنه الموعد الذي يبدأ فيه الزبائن بمغادرة الشارع، أما لتأدية صلاة الجمعة، أو بالعودة إلى منازلهم، حيث يرغب الباعة بالتخلص مما لديهم من معروض أملاً في الحصول على مجاميع جديدة، إن طلبه الجامعات، وطلبة الدراسات العليا، نصيباً وإفراً في هذا المهرجان، حيث يسعى قسم كبير منهم لتأمين احتياجاتهم من الكتب المقررة أو ←

والتغيير الجذري الذي لحق به، وامتد تأثيره حتى وقتنا الحاضر. كانت خلال الفترة التي أعقبت حرب الخليج الثانية، حيث أنه بسبب تدهور الأحوال المعيشية، وشظف العيش الذي لحق بالشعب عموماً، وبمتمثليه خصوصاً، لمحدودية مواردهم المالية، فقد دفعتهم الحاجة إلى بيع مآلديهم من كتب، وذلك لتأمين لقمة العيش والدواء. وتحول هذا الشارع إلى سوق بيع ومزادات علنية، لمئات من أمهات الكتب والمصادر في مختلف العلوم واللغات، وأصبح منظر أساتذة الجامعة، ومربي الأجيال، وهم يعرضون كتبهم على الأرض، أو من خلال بعض طلبتهم أو معارفهم هو منظر اعتيادي، لذلك نشأت طبقة جديدة من الباعة يسمون بـ"باعة البسطات" وهم الباعة الذين يعرضون الكتب والمجلات وأنواع المطبوعات الأخرى على الأرض والتي عادة ما تكون أسعارها متهاودة جداً، حيث إن سعر الكتاب يصل إلى نصف سعره المعروض ولنفس الطبعة والجودة، في واجهة إحدى المكتبات الموجودة في نفس الشارع. وقد شجع ذلك جمهور القراء على اقتناء، حتى مما قد لا يحتاجونه من كتب، في سبيل تزيين مكتباتهم الخاصة، ودفع بالكثيرين من الباعة خارج السوق إلى عرض مآلديهم من مطبوعات داخله.

وأدى الانفتاح الذي شهده العراق، بعد سقوط النظام السابق، ودخول الكثير من المطبوعات التي كانت ممنوعة من الدخول إلى السوق العراقي، بسبب اتجاهاتها الفكرية والعقائدية التي لا تتوافق مع توجهات السلطة آنذاك، إلى ازدهار السوق بالكثير من المطبوعات التي كانت ضمن الممنوعات، ولك أن تتصور الكم الهائل من الكتب والدوريات والمجلات التي كانت ممنوعة من الدخول لأكثر من ثلاثة عقود من الزمن وهي تدخل سوق العراق الآن ومن خلال هذه البوابة، ناهيك عن الكتب التي نتحدث عن تلك الفترة المظلمة من تاريخ العراق، سواء من قبل ما كتبه بعض المسؤولين عن تلك الحقبة، أو شهود العيان، أو

### شارع المتنبى خلال العهود المختلفة

كان هذا الشارع يسمى بشوارع المستشفى خلال حكم الأتراك للعراق، وذلك لوقوع إحدى المستشفيات فيه، حيث إنه كان قريباً من منطقة "القشلة" والتي فيها مقر الحكومة، قبل الاحتلال الإنكليزي للعراق، وبعد قيام الدولة العراقية، تم تأسيس المخيز العسكري "الأكمخانة" في أحد جوانبه، والذي كان يتولى تجهيز الوحدات العسكرية بالخبز، أو ما يسمى في العراق بـ"الصمون"، وكان أصحاب المطابع ومحلات تجليد الكتب يشغلون أغلب مباني هذا الشارع، ولم تكن فيه أية مكتبة لبيع الكتب، حيث كانت أغلبها محصورة في الشارع المجاور له "شارع السراي".

وفي الخمسينيات من القرن الماضي، بدأت المكتبات تنتقل من سوق السراي إلى شارع المتنبى وبدأت المطابع ومحلات تجليد الكتب تنسحب إلى داخل أزقتها، حيث كانت أول مكتبة تنتقل إليه هي "المكتبة العصرية"، ثم تبعتها المكتبة الأهلية، ثم المثني، والتي أصبحت من أشهر المكتبات في العراق، وتحولت إلى دار نشر أيضاً، ثم مكتبة المعارف، وبعدها التحقت بهم المكتبات الأخرى، إضافة إلى فتح مكتبات جديدة قدم أصحابها من مناطق أخرى، حتى تحول الشارع إلى معرض دائم للمكتبات، قبل أن تدخله محلات بيع القُرطاسية والمستلزمات الدراسية، ومما يجب ذكره أن معظم الكتاب العرب الذين كانوا يقدمون إلى بغداد، يزورون هذا الشارع، وتحديداً المكتبة العصرية، حيث كان من أشهر روادها، ميخائيل نعيمة، ومحمد خليل بيهم، والسيد حسن الأمين، كما ذكر لنا ذلك الباحث الأستاذ عبد الحميد الرشودي.

### شارع المتنبى في زمن الحصار وما بعده

لعل الطفرة النوعية التي شهدتها هذا الشارع،



كتب معروضة على أرضية شارع المتنبي Libros expuestos sobre la acera de la calle Al-Mutanabbi

التحدث فيها بصوت عالٍ. ولا تمارس فيها بعض ألعاب اللهو والتسليّة التي تمارس في المقاهي الأخرى مثل الدومينو والنرد "الطاوالي". ويكتفى بتناول الشاي والحامض وتبادل الأحاديث. ولعل أجمل ما في هذا المقهى أن جلسات الزبائن هي حسب التخصصات. حيث يجلس على مقربة من صاحب المقهى وعلى طاولات الجلوس الخشبية مجموعة الحكام والمحامين وبشكل متقابل. في حين يجلس أساتذة الجامعة في الزاوية الواقعة في مؤخرة المقهى. وهكذا الحال بالنسبة لأصحاب التخصصات الأخرى.

## المطابع ومحلات التجليد والتذهيب

يكاد يكون شارع المتنبي بيئة متكاملة لعملية إعداد الكتاب. وطبعه وتجليده ومن ثم بيعه. وتنتشر فيه وفي الأزقة المتفرعة المطابع ومحلات التجليد. والتي تتباين المطابع ما بين تلك التي تستخدم ماكنات الطباعة الحديثة وتلك التي لازالت تستخدم ماكنات الطباعة القديمة والتي يعود تأريخها إلى سنة 1900. أما بالنسبة لمحلات التجليد فإن معظمها يستخدم الطريقة اليدوية القديمة في تجليد الكتب والأطروحات الجامعية. واستخدام مادة الرصاص في إعداد الكليشيهات ومن ثم استخدام الورق المذهب والمعامل حرارياً في إعداد أغلفة الكتب. ■

لهذا الاستطلاع اشترت كتاباً قيماً في علم الأحياء وباللغة الأنكليزية من أحد باعة البسطات وبسعر 500 دينار عراقي أي ما يعادل حوالي 34 سنتاً.

## أذا أردت كتاباً فابحث عنه عند الفلّفلّي

إن من يزور شارع المتنبي لا بد أن يدخل إلى السوق الذي رقد هذا الشارع بمعظم مكتبته. ويسلم على صاحب المكتبة التي أبقى أصحابها مغادرة مكانها الأصلي في سوق السراي. والذي من النادر أن لا تجد ضالتك المنشودة في أي كتاب تبحث عنه فيها. ألا وهي مكتبة المرحوم "حسين الفلّفلّي". تأسست هذه المكتبة عام 1930. ويديرها اليوم أولاد المرحوم الفلّفلّي. وتضم هذه المكتبة كتباً قيمة في جميع الاختصاصات واللغات. ومنها ما يعود تأريخها إلى عام 1800. وكذلك مخطوطات نادرة. وهي الملاذ الذي يلجأ إليه الباحثون. وطلبة الدراسات العليا. وقد كان من روادها أساطين الثقافة العربية. وكانت تعقد فيها اللقاءات الثقافية. كما أن أصحابها يرشدونك إلى أي كتاب أو مصدر قد يساعدك في إنجاز بحثك.

ولعل منظر رؤية الزوار الأجانب أو السياح هو من المناظر المألوفة أمام هذه المكتبة. حيث يبحثون عن كتب قديمة تخص حضارة العراق. أو مخطوطات نادرة أو خرائط. وقد التقيت هناك قبل مدة باحثة أمريكية تبحث عن كتاب يتحدث عن الأدب الفارسي القديم وباللغة الفارسية. والغريب أنه قد تم تلبية طلبها وبسعر زهيد. لذلك لا غرابة أن يردد مثقفو العراق دائماً "إذا أردت كتاباً فابحث عنه عند الفلّفلّي"

## مقهى الشابندر

في نهاية شارع المتنبي المقابل لسوق السراي. تقع أشهر المقاهي في بغداد اليوم والتي باتت الملتقى الأسبوعي للطبقة العالية من رواد شارع المتنبي. وهذه المقهى هي سمقهى الشابندر". تأسست هذه المقهى عام 1917. وسميت بالشابندر نسبة إلى أصحاب المبنى الذي تقع فيه هذه المقهى وهم ورثة "محمد سعيد الشابندر" من أعيان بغداد. وعند تأسيسها. وبسبب قربها من خمس وزارات وبضمنها وزارة العدل. حيث تتواجد بعض دوائرها. فإن معظم روادها كانوا من رجال القانون من الحكام والمحامين. وكذلك أصحاب الدعاوى الذين يراجعون المحاكم. وكانت خلال فترة الخمسينات تقام فيها حفلات المقام العراقي. التي كان يجيئها أحد أبرز قراء المقام وهو "رشيد القنرجي". وغالباً ما كان ربع هذه الحفلات لصالح المؤسسات الخيرية. ومنها مدرسة التفويض الأهلية. كما ذكر لنا ذلك صاحبها الحالي "الحاج محمد الخشالي".

أما اليوم. فإنها قد صارت الملتقى اليومي والأسبوعي للمثقفين. حيث يرتادها معظم أساتذة الجامعة والأدباء ورجال الإعلام الذين يزورون شارع المتنبي. كما أن لديها طقوساً خاصة. حيث يمنع

المراجع. أو القواميس. من خلال هذا الشارع. والطريف في الأمر أن قاموس المورد الشهير يستنسخ ويجلد ويبيع في هذا الشارع وبطريقة لا يستطيع فيها القارئ العادي التمييز بينه وبين الطبعة الأصلية وهي طبعة بيروت. وعادة ما يباع بسعر هو نصف سعر الطبعة الأصلية المعروضة إلى جانبه في هذا السوق.

لعل أكثر الأسواق والنوادر التي تحظى باهتمام وسائل الإعلام سواء العراقية أو العربية أو الأجنبية. هو شارع المتنبي. حيث دائماً ما تشاهد الكاميرات وهي تدور لتصوير بعض جوانبه. كما أن مندوبي الصحف والمجلات دائماً ما يستوقفون الزائر. لسؤاله عن رأيه بالمعروض. وأسعار الكتب. ودائماً ما يتم إعداد تحقيقات تلفزيونية عن هذا الشارع. كما أن السياح الذين كانوا يزورون بغداد. وكذلك المستشرقين. كثيراً ما تراهم في هذا السوق وهم يبحثون إما عن خارطة لبغداد أو عن كتب قديمة.

والحقيقه التي نذكرها للقراء هي أن العراق يعتبر أرخص سوق لبيع الكتب في العالم. وحتى في أحلك الظروف التي مر بها. لأنه يحتفظ بخزين من الكتب سواء الموجود داخل المكتبات المنزلية. أو المكتبات الخاصة للبيع التي قد لا تجد ما يضاويه في معظم بلدان العالم. وحتى المجاورة للعراق. وكانت الدولة تدعم أسعار الكتب المستوردة وبنسبة تصل إلى 50% كما أن معظم الدارسين من العراقيين في الخارج كانوا إما يجلبون معهم عشرات الكتب. أو يتم شحنها جواً أو بحراً. بعد وصولهم. ثم اضطروا لبيعها. مما سهل على القارئ الحصول على كتب جيدة وبأسعار رخيصة. وأود أن أذكر أنه أثناء إعدادي



جانب من شارع المتنبي Vista de la calle Al-Mutanabbi